مدخل مجزوءة الإنسان

يتميز الإنسان عن باقي الكائنات بكونه لا يكتفي بمجرد الوجود، بل يجعل من وجوده نفسه موضوعًا للتساؤل والتفكير. فهو كائن يعيش العالم، لكنه يستطيع في الوقت نفسه أن يعي ذاته وأفعاله وأفكاره، وأن يتساءل عن معنى وجوده ومصيره وحدود قدرته على الاختيار. غير أن الإنسان لا يبدو دائمًا سيدًا وشفافًا بالنسبة إلى ذاته؛ فقد تحركه دوافع ورغبات لا يدرك مصدرها، وقد يجد نفسه أمام أفكار ومشاعر وسلوكات لا يستطيع تفسيرها تفسيرًا واعيًا. كما أن وجوده لا يتحقق في عزلة، بل يتشكل داخل علاقات مع الآخرين، وفي إطار اللغة والثقافة والقواعد والقيم والمؤسسات الاجتماعية.

ومن هنا، يكشف التفكير في الإنسان عن مجموعة من المفارقات والإشكالات :فهل الإنسان كائن واعٍ بذاته وقادر على التحكم في أفعاله، أم أن اللاوعي يحد من سيادته على نفسه؟ وهل الرغبة تعبر عن حرية الإنسان واختياراته، أم أنها تكشف عن حاجات ودوافع تتجاوزه؟ ثم هل يستطيع الإنسان أن يحقق ذاته بعيدًا عن الآخرين والمجتمع، أم أن المجتمع يشكل هويته ويوجه أفكاره ورغباته وسلوكه؟ وبذلك تصبح دراسة الإنسان بحثًا في طبيعة هذا الكائن، وفي علاقته بذاته، وبرغباته، وبالآخرين والمجتمع الذي يعيش داخله.

يبدو الوعي في التجربة الإنسانية باعتباره قدرة الإنسان على إدراك ذاته وأفكاره وأحاسيسه وأفعاله، وعلى معرفة العالم الذي يحيط به فالإنسان لا يعيش فقط ما يحدث له، بل يستطيع أن يتوقف عند تجربته، وأن يتأملها، وأن يجعل من ذاته ومن العالم موضوعًا للتفكير. ومن هذا المنظور، ارتبط الوعي بالذات والحرية والمسؤولية، وبقدرة الإنسان على توجيه أفعاله وفهم دوافعه. غير أن هذا التصور يثير سؤالًا أساسيًا :هل يمثل الوعي حقيقة شفافة تجعل الإنسان حاضرًا بصورة كاملة أمام ذاته؟

إن التفكير في الوعي يكشف أن علاقة الإنسان بذاته وبالعالم ليست دائمًا واضحة أو مباشرة؛ فقد توجد في الإنسان دوافع ورغبات وتمثلات لا يعيها، وقد تؤثر في أفكاره وسلوكه دون أن يدرك مصدرها. كما أن ما يعتقد الإنسان أنه معرفة واعية وحرة قد يكون أحيانًا مشروطًا بأوهام وتمثلات أو بمؤثرات اجتماعية وثقافية وإيديولوجية توجه نظرته إلى الواقع. ومن هنا تتعدد الأسئلة :ما طبيعة الوعي؟ وهل الوعي مستقل عن الجسد والدماغ أم مرتبط بهما؟ هل يوجد في الإنسان لاوعي يحد من سيادة الوعي على الذات؟ وهل يمكن للوعي أن يكون مصدرًا للحقيقة، أم قد يتحول إلى وهم يحجب الواقع؟ وكيف تتدخل الإيديولوجيا في تشكيل الوعي وتمثيل الإنسان لذاته وللعالم؟

المحور الأول : الوعي و الإدراك الحسي

وضعية مشكلة

تخيّل شخصًا وُلد وهو يتمتع بدماغ سليم، لكنه حُرم منذ ولادته من الحواس والتجربة مع العالم الخارجي. هل يمكن أن تكون لديه أفكار ومعارف ووعي بالعالم وبذاته كما لدى الإنسان الذي عاش وتفاعل وحسّ بالأشياء؟

إذا كان الوعي قادرًا على التفكير في ذاته، فهل يدل ذلك على أنه جوهر عقلي مستقل عن الجسد؟ أم أن الوعي يتشكل تدريجيًا من خلال الحواس والتجربة والتفاعل مع العالم، وأن نشاط الدماغ شرط أساسي لوجوده؟

فهل الوعي حقيقة روحية مفارقة للجسد، أم أنه مرتبط بالجسد والدماغ والإدراك الحسي والتجربة؟

جواب الوضعية المشكلة :

تُعدّ هيلين كيلر (1880–1968)، الكاتبة والمحاضرة الأمريكية، مثالًا دالًا على إشكالية الوعي؛ فقدت السمع والبصر في طفولتها المبكرة، ومع ذلك استطاعت، بفضل التعلم والتواصل، اكتساب اللغة والمعرفة والالتحاق بالتعليم الجامعي، لتصبح لاحقًا شخصية فكرية معروفة. فإذا كان الوعي لا يتشكل إلا من خلال الحواس والتجربة، فكيف نفسر قدرتها على التعلم وبناء عالم من المعاني رغم فقدانها حاستي السمع والبصر؟ وهل يكشف ذلك عن استقلال الوعي عن الجسد والحواس، أم أن التجربة الحسية، وإن كانت محدودة، تظل شرطًا أساسيًا في تشكله؟

المفارقة

تكشف تجربة هيلين كيلر عن مفارقة أساسية :فالوعي يبدو من جهة مرتبطًا بالحواس والجسد، لأن الإنسان لا يبني معرفته بالعالم إلا من خلال التجربة والإدراك؛ لكنه يبدو من جهة أخرى قادرًا على تجاوز المعطى الحسي المباشر، إذ يستطيع الإنسان التفكير والتذكر والتخيل وفهم معانٍ لا تحضر أمام حواسه بصورة مباشرة.

إذن، إذا كان الوعي يتجلى من خلال التجربة الحسية، فهل يعني ذلك أنه مجرد نتاج للجسد والدماغ؟ أم أن له طبيعة عقلية أو روحية تتجاوز المادة؟

الإشكال المركزي

ما طبيعة الوعي؟ هل هو جوهر عقلي أو روحي مستقل عن الجسد، أم أنه ظاهرة مرتبطة بالجسد والدماغ ولا تتشكل إلا من خلال الإدراك الحسي والتجربة؟

الأسئلة الموجهة للمحور

ومن هذا الإشكال المركزي تتفرع مجموعة من الأسئلة:

- هل الوعي مستقل عن الجسد أم مرتبط به؟
- هل مصدر الوعي هو العقل أم الدماغ؟
- هل يمكن أن يوجد وعي دون تجربة حسية؟
- هل الحواس مجرد وسيلة للمعرفة، أم أنها شرط لتكوّن الوعي نفسه؟
- هل الوعي معطى قبلي أم يتشكل من خلال التجربة؟

التحليل المفاهيمي

يحيل مفهوم الوعي إلى حضور الذات لذاتها، أي قدرة الإنسان على أن يدرك أفكاره وأحاسيسه وأفعاله، وأن يجعل منها موضوعًا للتأمل والتفكير. فالوعي لا يقتصر على مجرد الإحساس بما يحدث في الذات أو في العالم، بل يتضمن معرفة الذات بأنها تحس وتفكر وتدرك .ومن هنا ارتبط الوعي، في التصور الفلسفي، بمفهوم الفكر وبقدرة الذات على الرجوع إلى ذاتها.

غير أن هذا الحضور الواعي للذات لا يبدو منفصلًا عن علاقتها بالعالم؛ فالإنسان يتلقى معطيات العالم بواسطة الحواس، ومن خلالها يتشكل الإدراك الحسي بوصفه وعيًا بالأشياء والوقائع المحيطة. لذلك يطرح الإدراك الحسي سؤالًا حول طبيعة العلاقة بين ما تمنحه الحواس وما ينتجه الفكر :هل الوعي مجرد استقبال لما تنقله الحواس، أم أن الذات تتدخل في تنظيم المعطيات الحسية وتأويلها ومنحها معنى؟

ويزداد الإشكال تعقيدًا عندما نربط الوعي بـالجسد؛ فالوعي يتجلى من خلال كائن مادي يمتلك حواسًا ودماغًا وجهازًا عصبيًا. فهل يكون الجسد مجرد وسيلة أو أداة يستعملها الوعي، أم أن الوعي نفسه مرتبط بالبنية الجسدية والدماغية للإنسان؟ ومن هنا يظهر التقابل بين تصور يجعل الوعي جوهرًا عقليًا متميزًا عن الجسد، وتصور آخر يربطه بالشروط المادية التي تجعل الإدراك والتجربة ممكنين.

أما التجربة فتشير إلى علاقة الإنسان بالعالم من خلال الإحساس والممارسة والتفاعل واكتساب الخبرة. وهنا يبرز سؤال آخر: هل الوعي والمعرفة موجودان في الإنسان بصورة سابقة على التجربة، أم أن الإنسان لا يبني عالمه العقلي إلا من خلال ما تمنحه له التجربة الحسية؟

وهكذا تكشف هذه المفاهيم عن علاقات متوترة: الوعي/الجسد، العقل/المادة، الفطري/المكتسب، الإحساس/الفكر، الذات/العالم .ومن هنا تتأسس المواقف الفلسفية المتعارضة التي سننتقل إليها للكشف عن طبيعة الوعي وشروط تشكله.

المواقف الفلسفية :

ديكارت: الوعي جوهر مفكر متميز عن الجسد

ينطلق رينيه ديكارت من الشك المنهجي ليبحث عن حقيقة لا يمكن الشك فيها، فيجدها في فعل التفكير ذاته: ما دمت أشك وأفكر، فلا يمكنني أن أشك في وجودي بوصفي ذاتًا مفكرة. لذلك يميز ديكارت بين النفس أو العقل باعتباره جوهرًا مفكرًا، وبين الجسد باعتباره جوهرًا ممتدًا؛ فالماهية الأساسية للذات ليست أن تكون جسدًا، وإنما أن تكون شيئًا يفكر. ومن ثم فالوعي، في هذا التصور، لا يُختزل في الوظائف الجسدية أو الحسية، لأن الفكر يمكن أن يُتصور من حيث هو فكر مستقلًا عن امتداد الجسد. هكذا يؤسس ديكارت لتصور ثنائي يجعل الوعي والعقل من جهة، والجسد والمادة من جهة أخرى، جوهرين متميزين .

جون لوك: الوعي والتجربة

مع جون لوك ينتقل النقاش من السؤال عن جوهر النفس إلى سؤال مصدر الأفكار وتكوّن الحياة العقلية .يرفض لوك وجود أفكار فطرية جاهزة، ويرى أن الأفكار تأتي من التجربة التي تتخذ شكلين أساسيين :الإحساس (Sensation)، حيث نتلقى المعطيات من العالم الخارجي بواسطة الحواس، والتأمل(Reflection) ، حيث يدرك العقل عملياته الداخلية مثل التفكير والإرادة والشك والتذكر. وبذلك لا يكون الوعي عالمًا مكتملًا ومستقلًا عن التجربة، بل يرتبط بما يكتسبه الإنسان من الإحساس وبما يلاحظه العقل من عملياته الخاصة. ومع ذلك، لا يحسم لوك بصورة مباشرة السؤال الميتافيزيقي حول ما إذا كانت المادة قادرة بذاتها على التفكير، بل يترك المسألة مفتوحة؛ وهو ما يجعل موقفه مختلفًا عن المادية الصريحة .

هوسرل: الوعي قصدية وتجربة معيشة

مع إدموند هوسرل يتغير السؤال: بدل البحث أولًا عن مادة الوعي أو جوهره، ينبغي وصف كيفية ظهور الأشياء للوعي كما تُعاش في التجربة .فالوعي عند هوسرل ليس شيئًا مغلقًا داخل الذات، بل هو دائمًا وعي بشيء؛ وهذه الخاصية يسميها القصدية .فالوعي يدرك، ويتذكر، ويتخيل، ويرغب، ويحكم، وكل هذه الأفعال تتجه نحو موضوع ما. لذلك لا يمكن فهم الوعي باعتباره مجرد جوهر داخلي منفصل عن العالم، ولا باعتباره مجرد استقبال سلبي للمعطيات الحسية؛ إنه علاقة بين الذات الواعية والموضوع الذي تقصده .وهنا تصبح التجربة المعيشة نقطة انطلاق لفهم بنية الوعي بدل اختزاله مسبقًا إلى تفسير ميتافيزيقي أو فيزيولوجي .

ميرلوبونتي: الوعي متجسد والإدراك علاقة بالعالم

يطور موريس ميرلوبونتي المنظور الظاهراتي باتجاه التشديد على الجسد المعيش؛ فالإنسان لا يمتلك جسدًا من الخارج كما يمتلك شيئًا ماديًا، بل هو يعيش العالم من خلال جسده .لذلك لا ينبغي الفصل بصورة حادة بين الوعي والجسد، ولا بين الإدراك والعالم؛ فالإدراك ليس استقبالًا سلبيًا لمعطيات حسية منفصلة، بل هو نمط من الوجود في العالم تشترك فيه الحواس والحركة والجسد والبيئة. ويستفيد ميرلوبونتي من أبحاث علم النفس العصبي، ومن بينها حالة المريض شنايدر، ليبين أن اضطرابات الدماغ يمكن أن تكشف عن البنية الجسدية والعملية للإدراك، دون أن يعني ذلك اختزال التجربة الإنسانية كلها في آليات عصبية. وهكذا يصبح الجسد شرطًا للوعي والإدراك، وليس مجرد موضوع خارجي لهما .

علم الأعصاب: الوعي مرتبط بالدماغ وشبكاته

تقدم علوم الأعصاب المعاصرة مقاربة مختلفة، إذ تبحث عن الآليات العصبية التي ترتبط بالحالات الواعية، مستفيدة من التصوير العصبي والتسجيلات الكهربائية والنماذج الحاسوبية. ومن أبرز النماذج نظرية فضاء العمل العصبي العالمي (Global Neuronal Workspace – GNWT) المرتبطة خصوصًا بأعمال ستانيسلاس دوهاين ورفاقه؛ وتفترض أن المعلومات المعالجة بصورة محلية وغير واعية تصبح واعية عندما تدخل في نشاط واسع الانتشار عبر شبكات دماغية مترابطة، بما يجعلها متاحة لعمليات مثل التقرير، واتخاذ القرار، والذاكرة، والفعل الإرادي. وفي المقابل توجد نظريات أخرى، مثل نظرية المعلومات المتكاملة(IIT) ، التي تربط الوعي بدرجة تكامل المعلومات داخل النظام العصبي، ونظرية المعالجة الراجعة (RPT) ونظريات المعالجة التنبؤية. ولا توجد اليوم نظرية علمية واحدة حاسمة تفسر الوعي بالكامل؛ بل ما تزال العلاقة بين النشاط العصبي والتجربة الذاتية موضع بحث ونقاش.

الموقف العلمي: الوعي والنشاط العصبي

أولًا: نظرية فضاء العمل العصبي الشامل – جان بيير شانجو وستانيسلاس دوهاين

يرى جان بيير شانجو(Jean-Pierre Changeux) ، عالم أعصاب فرنسي وُلد سنة 1936، إلى جانب ستانيسلاس دوهاين(Stanislas Dehaene) ، عالم أعصاب فرنسي وُلد سنة 1965، أن الوعي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بنشاط الدماغ. ومن أهم التصورات التي طوراها نظرية فضاء العمل العصبي الشامل، التي تقول ببساطة إن الدماغ يقوم باستمرار بمعالجة عدد كبير من المعلومات دون أن نكون واعين بها كلها، لكن عندما تصبح معلومة معينة ذات أهمية ويتم تنشيطها بقوة داخل شبكة واسعة من الخلايا العصبية، تصبح هذه المعلومة متاحة لعدد من العمليات العقلية، مثل الانتباه والذاكرة والتفكير واتخاذ القرار، فنصبح واعين بها. وبذلك لا

يكون الوعي، في هذا التصور، جوهرًا منفصلًا عن الدماغ، بل يرتبط بنمط معين من النشاط والتواصل بين الشبكات العصبية.

ثانيًا: نظرية هوية العقل والدماغ – أولين بليس وج. ج. س. سمارت

تذهب نظرية هوية العقل والدماغ إلى موقف أكثر وضوحًا؛ فهي ترى أن الحالات والعمليات العقلية ليست شيئًا مستقلًا عن العمليات الدماغية، بل هي في الواقع عمليات تحدث في الدماغ .ومن أبرز رواد هذا الاتجاه أولين توماس بليس(U. T. Place) ، وهو فيلسوف وعالم نفس بريطاني (1924–2000)، الذي نشر سنة 1956 مقالته الشهيرة *هل الوعي عملية دماغية؟* ، ودافع فيها عن إمكانية اعتبار الوعي عملية تحدث في الدماغ. كما ساهم الفيلسوف جون جاميسون كارزويل سمارت(J. J. C. Smart) ، المولود في إنجلترا سنة 1920والمتوفى سنة 2012، في تطوير هذا الاتجاه من خلال مقاله *الإحساس والعمليات الدماغية* سنة 1959. ووفق هذا التصور، عندما نحس بالألم أو نرى لونًا أو نفكر في شيء، فهذه الحالات العقلية ترتبط بعمليات فيزيائية عصبية داخل الدماغ؛ لذلك لا ينبغي البحث عن العقل باعتباره جوهرًا منفصلًا عن الجسم.

نقد الموقف العلمي

تكمن قوة هذا الموقف في أنه يستند إلى أدلة كثيرة تبين أن تغير النشاط الدماغي يمكن أن يغير الإدراك والذاكرة والانتباه والسلوك والوعي؛ غير أن هذا لا يعني بالضرورة أن الوعي قد اختُزل بالكامل إلى الدماغ .فمعرفة ما يحدث في الخلايا العصبية لا تجيب وحدها عن السؤال :لماذا يصاحب هذا النشاط العصبي إحساس ذاتي؟ فعندما يرى الإنسان اللون الأحمر مثلًا، تستطيع العلوم العصبية أن تدرس النشاط الدماغي المرتبط برؤية اللون، لكنها لا تزال تواجه سؤالًا آخر: لماذا يكون لهذا النشاط تجربة ذاتية يشعر بها الإنسان؟ وهذا ما سماه الفيلسوف ديفيد تشالمرز »المشكلة الصعبة للوعي». لذلك ينبغي التمييز بين إثبات أن الوعي يرتبط بالنشاط العصبي، وبين إثبات أن النشاط العصبي هو نفسه التجربة الواعية بكل أبعادها؛ فالعلاقة بين الدماغ والتجربة الواعية ما تزال موضوعًا للنقاش العلمي والفلسفي.

ديفيد تشالمرز: المشكلة السهلة والمشكلة الصعبة للوعي

ديفيد جون تشالمرز (David John Chalmers) فيلسوف وعالم إدراكي أسترالي، وُلد في 20أبريل 1966 بمدينة سيدني في أستراليا، وهو متخصص في فلسفة العقل والوعي. وقد اشتهر بتمييزه بين المشكلات السهلة للوعي والمشكلة الصعبة للوعي.

يقصد تشالمرز بـ المشكلات السهلة للوعي مجموعة الأسئلة التي يمكن للعلوم العصبية والعلوم المعرفية أن تبحث فيها من خلال دراسة عمل الدماغ، مثل: كيف يستقبل الدماغ المعلومات الحسية؟ كيف يميز بين الألوان والأصوات؟ كيف يركز الانتباه؟ كيف يخزن المعلومات في الذاكرة؟ وكيف يجعل الإنسان قادرًا على وصف ما يراه أو يشعر به؟ ويصفها تشالمرز بأنها «سهلة» ليس لأنها بسيطة في الواقع، وإنما لأنها قابلة للمعالجة بالطرق العلمية المعتادة، أي يمكن البحث عن آلياتها ووظائفها العصبية.

أما المشكلة الصعبة للوعي فتتعلق بسؤال أعمق :لماذا يصاحب هذه العمليات الدماغية أصلًا شعورٌ ذاتي؟ فإذا كان الدماغ يستقبل الضوء ويحلله ويحدد أن الشيء أمامنا أحمر، فإن العلم يستطيع دراسة النشاط العصبي المرتبط بذلك؛ لكن يبقى السؤال :لماذا تكون لهذه العملية تجربة واعية؟ لماذا لا تحدث كل هذه العمليات العصبية في غياب أي شعور داخلي؟ أي كيف ينتقل النشاط الفيزيائي في الدماغ إلى تجربة ذاتية يعيشها الشخص من الداخل، مثل تجربة رؤية اللون الأحمر أو الإحساس بالألم؟ ولهذا صاغ تشالمرز في مقاله الشهير »مواجهة مشكلة الوعي» سنة 1995 مفهوم «المشكلة الصعبة.«

وهكذا يكشف تشالمرز عن حدّ مهم في التفسير العصبي :يمكن أن نعرف ماذا يفعل الدماغ وكيف يعالج المعلومات، لكن معرفة هذه العمليات لا تعني بالضرورة أننا عرفنا لماذا توجد تجربة واعية أصلًا .ومن هنا يظهر ما يسمى فجوة التفسير بين وصف النشاط العصبي الموضوعي وبين تفسير التجربة الذاتية التي يعيشها الشخص. لذلك فإن ارتباط الوعي بالدماغ لا يحسم وحده طبيعة الوعي، بل يترك مفتوحًا السؤال الفلسفي :كيف يمكن لعملية مادية في الدماغ أن تنتج تجربة واعية ذاتية؟

التركـــيـــب

يتضح من المواقف السابقة أن الوعي لا يمكن اختزاله بسهولة في بعد واحد؛ فهو يرتبط بالتفكير والتجربة والإدراك والجسد. وقد بينت علوم الأعصاب أن الوعي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالنشاط العصبي، وأن مختلف العمليات العقلية تعتمد على نشاط الدماغ. غير أن ديفيد تشالمرز يميز بين تفسير العمليات العصبية التي ترافق الوعي وبين تفسير التجربة الذاتية نفسها، أي: لماذا نشعر بالألم أو نرى الألوان أو نعيش تجاربنا من الداخل؟

وتشير الأبحاث المعاصرة إلى أن الوعي يرتبط بشبكات ونشاطات عصبية متعددة، لكنها لم تقدم إلى الآن تفسيرًا حاسمًا لكيفية تحول النشاط الدماغي إلى تجربة واعية. لذلك يظل الوعي مجالًا تتقاطع فيه الفلسفة وعلوم الأعصاب، وتبقى علاقته بالدماغ والجسد من أهم المشكلات المفتوحة.